الدّلالة المعنوية
في اللغة العربية
بين الأصالة والمعاصرة

بقلم الأستاذ : أحمد عبد الرحيم السايح

اللغة نشاط بارز من النشاطات الانسانية، وهي لشدة قربها منا غالبا لا نراها الرؤية الصحيحة الموضوعية.. فنحن نحدث الناس ونصغي اليهم، وهم يحدثوننا دون أن نعير الكيفية التي يتم بها التخاطب أي اهتمام أو تفكير..

وبديهي أن نقول : إن المرء يحرك عضلات النطق المعروفة، فيصدر أصواتا معينة، يسمعها الشخص المخاطب، فيفهمها. وبناء على فهمه، يقوم برد الفعل المناسب..

فكيف يستطيع الانسان أن يترجم تلك الرموز الصوتية، إلى معان يدركها، ويفهم مغزاها؟..

تشير الدراسات التي قام بها علماء اللغة والمنطق، الى وجود قدرة كامنة، في دماغ الانسان، تمكنه من التمييز بين ما يسمعه من الكلام..

ولقد ظل علماء اللغة والمنطق، مدة طويلة، يحاولون التوصل الى نظرية محددة تشرح كيفية ادراكنا لرموز اللغة ومعانيها..

ويطلق على هذه النظرية اصطلاحا اسم «نظرية المعنى»(١)..

وفلاسفة اليونان وحكماؤها دعوا الى الأخذ بأساليب معينة وطرق خاصة، للهيمنة على التفكير الانساني، والسيطرة على ما يدور في الأذهان.. وقد جعلوا تلك الأساليب والطرق في صور بديهيات لا تقبل النقاش، ولا يصح أن تكون موضع جدل.. ثم اتخذوا من تلك البديهيات مقدمات لقضايا عقلية، ينتهون منها الى حكم خاص لا يتردد العقل في قبوله..

وكان من نتيجة هذا النهج العقلي في الأحكام أن ابتدعوا لنا علما سموه «المنطق» بينوا حدوده، ونموا موضوعاته. حتى أصبح على يد أرسطو(٢) علما واضح المعالم، يتداركه الناس..

ولم يتخذ «أرسطو» ومن نحوا نحوه من المناطقة لهذا العلم رموزاً كالرموز الرياضية والهندسية. ولكنهم صاغوا قضاياه ومسائله على نهج لغوي شبيه بكلام الناس، اعتقادا منهم: أن أساليب اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عما يدور في الأذهان..

ومثل الفكر الانساني قبل النطق بمضمونه مثل الصورة الشمسية قبل تحميضها. فاذا عولجت بقدر خاص من الأحماض، اتضحت معالمها، وتكشفت خطوطها، وملامحها. وهكذا شأن التعابير اللفظية مع العمليات الذهنية لا يكاد يعدو مهمة التوضيح، وابراز المعالم والملامح للأذن الانسانية. ولقد كان طبيعيا أن نرى أولئك المفكرين القدماء أصحاب العقول الكبيرة، يحصرون أنفسهم في محيط معين لا يتعدونه في تفكيرهم، ولا يخرجونه عنه..

ولما انتهى أرسطو من تأسيس منطقه، وتحديد معالمه، رغب في حمل الناس على انتهاج هذا المسلك في التفكير، والتزام تلك الحدود، بعد أن صب تعاليمه في قوالب لغوية، وصاغها في صورة ألفاظ وأصوات يألفها الناس في أحاديثهم..

وهنا بدأت الصلة بين اللغة والمنطق. وظل المفكرون بعد أرسطو قرونا

طويلة، يربطون بين اللغة والمنطق، ويحاولون صب اللغات في تلك القوالب المنطقية التي ابتدعها أرسطو. طورا يوثقون الصلة، فينكرون من كلام الناس مالا يتفق وحدود المنطق. وأخرى يقتصدون في هذا. فنرى منهم من يجعل للمنطق حدوده وللغة حدودها. ولكن الحدود متشابكة متداخلة، فهناك ناحية من المنطق تنطبق تمام الانطباق على ناحية اللغة. كما أن هناك من المنطق مالا يمت للغة في صورتها المألوفة الشائعة على الألسنة بصلة ما(٣)..

ولبث المنطق يغزو ببحوثه بعض مناطق اللغات. كما ظل اللغوي يقتحم ببحوثه بعض نواحي المنطق.. ولو أن أرسطو قد اتخذ لعلمه رموزا أخرى، لا شأن لها بما يدور على الألسنة من ألفاظ وعبارات ما احتاج المنطقي الى البحث في اللغة، ولا احتاج اللغوي الى النظر في المنطق.. وقد استطاع أرسطو أن يقرب بين منطقه واللغة اليونانية، ان لم يكن قد جعلهما منطبقتين تمام الانطباق..

وأعجب المفكرون في الأمم الأخرى بمنطق أرسطو، وحاولوا صب لغاتهم في تلك القوالب، موفقين في هذا تارة، وبعيدين تارة أخرى. لذلك لا تعجب حين ترى اللغويين القدماء من العرب. قد سلكوا هذا المسلك من الربط بين اللغة العربية والنطق.. وكثيرا ما نشهد في البحوث اللغوية من الأقيسة والاستنباطات، مالا يمت لروح العربية بصلة ما(٤)..

ولقد كشف الدكتور ابراهيم مدكور عن تأثر النحاة العرب. بمنطق أرسطو وذلك في بحث له بعنوان «منطق أرسطو والنحو العربي» ألقاه بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة ١٣٤٨هـ. جاء فيه: «**ولا شك في أن المنطق الأرسطي قد صادف في القرون الوسطى المسيحية والاسلامية، نجاحا لم يصادفه أي جزء آخر من فلسفة المعلم الأول. فعرف أرسطو المنطقي قبل أن يعرف أرسطو الميتافيزيقي. وترجم «الأرجانون» قبل أن يترجم كتاب الطبيعة أو كتاب الحيوان. وللأرجانون في العالم العربي منزلة خاصة، فكانت أجزاؤه أول ماترجم من الكتب الفلسفية الى اللغة العربية**».. ثم يقول الدكتور مدكور في نفس البحث: «ولم يقف الأمر فيما نعتقد عند الكلام والفلسفة بل امتد الى دراسات أخرى من بينها النحو. وقد أثر فيه المنطق الأرسطي من

جانبين: أحدهما: موضوعي.. والآخر: منهجي. فتأثر النحو العربي عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قواعد نحوية، وأريد بالقياس النحو أن يحدد على نحو ما حدد القياس المنطقي»(٥)..

وهكذا يرى صاحب البحث أن نحاة العرب قد تأثروا بالمنطق الأرسطي وأعجبوا به.. ولكن احقاقا للحق وانصافا للغة العربية. نرى من الضروري أن نشير الى موقف بعض نحاة العرب من المنطق، ونفورهم من مسايرة المناطقة في بحوثهم. يشهد لذلك ما كان من مساجلات بين أهل المنطق وبعض النحاة، في حضرة الخلفاء، والوزراء، والأمراء.. فقد عقد أبو حيان التوحيدي في رسائله التي سماها «المقابسات» فصلين. جعل الأول منهما على صورة حوار بين أستاذه أبي سعيد السيرافي، أحد النحاة المشهورين. وبين متّى بن يونس المنطقي، في حضرة الوزير بن الفرات.. ظهر منها ميل أبي حيان لمسلك النحاة، وقد اتخذ أبو حيان لهذه المناظرة عنوان «المنطق اليوناني والنحو العربي» أما الفصل الثاني فقد اشتمل على رسائل جاءت في المقابسات، عنوانها: «ما بين المنطق والنحو من المناسبة». رواها أبو حيان على صورة حديث بينه وبين أستاذه سليمان المنطقي. وقد سجل ذلك في الليلة الثامنة من كتابه «الامتاع والمؤانسة»(٦)..

ويظهر من كل هذا أن القرن الرابع الهجري، قد شهد صراعا بين طائفتين من علماء العربية..

أولئك الذين أعجبوا بعلوم اليونان وثقافتهم اعجابا بلغ بهم أن كانوا لا يأبهون بغيرها، ولا يرون فضلا الا لها..

وآخرون يرون الاقتصاد والاعتداد، ولا ينكرون فضل اليونان، ولكنهم لا يرونه كل الفضل.. فثارت بينهم لذلك المناظرات والمساجلات التي انتصر فيها أصحاب الاعتدال في غالب الأحيان..

وقد امتد ذلك الصراع الى محيط المنطق واللغة. أو بعبارة أدق الى قوم أرادوا الناس في عصرهم على صب أساليب اللغة العربية، في قوالب المنطق اليوناني.. وآخرين استمدوا في بحوث العربية بعضا مما ذكره أرسطو من مبادىء لغوية..

ولكنهم استمسكوا بخصائص لغة العرب، وأخضعوا ما اقتبسوه الى روح اللغة العربية، مدركين أن لكل لغة خصائصها، ولا يصح أن تقيد العربية بقيود اليونانية(٧)..

ونلحظ من المناظرة التي كانت في حضرة الوزير ابن الفرات المتوفي في العشرينات من القرن الرابع الهجري. أن متى بن يونس كان يمثل الفريق المغالي في الاعتزاز بثقافة اليونان. وأن أبا سعيد السيرافي كان يمثل الفريق الآخر الذي لا ينكر فضل اليونان. ولكنه يرى تشكيله وتكييفه حسب طبيعة اللغة العربية مع الاعتزاز بتلك الخصائص اللغوية التي لا تمت لمنطق اليونان بصلة.

يقول السيرافي: «والنحو منطق ولكنه مسلوخ عن العربية. والمنطق نحو، ولكنه مفهوم باللعة.. وانما الخلاف بين اللفظ والمعنى. ان اللفظ طبيعي والمعنى عقلي»..

فالسيرافي اذن لا يتنكر للمنطق في البحث اللغوي. وقد سلك هذا المسلك فعلا في شرحه لكتاب سيبويه، حين اتخذ بعض المعاني العقلية أسسا بنى عليها بعض قواعد اللغة. ومع هذا، أو رغم هذا كان السيرافي يرى أن لكل لغة خصائصها التي لا يمكن أن تخضع لمنطق اليونان إلا مع التكلف والتعسف.. ويقول في ذلك: **«أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها، وأفعالها، وصروفها، وتأليفها، وتقديمها، وتأخيرها، واستعاراتها، وتحقيقها..».. أما رسالة أبي حيان الثانية تلك التي جعل عنوانها: «ما بين المنطق والنحو من المناسبة». فيبدو أن أباحيان قد كتبها فيما بعد. لأنها توحي بمصالحة بين المناطقة والنحاة. اذ يقول: «النحو منطق عربي. والمنطق نحو عقلي. وجل نظر المنطقي في المعاني. وان كان لا يجوز له الاخلال بالألفاظ التي هي لها كالحلل والمعارض. وجل نظر النحوي في الألفاظ، وان كان لا يسوغ له الاخلال بالمعاني التي هي كالحقائق، والجواهر(٨)»..**

والباحث في أمهات كتب اللغة العربية. يجد للعربية خصائص ومميزات بزت بها غيرها، لا تدانيها فيها لغة من اللغات. فأنت تستطيع أن تؤلف من مفرداتها قطعا تأخذ بالعقول في عالم الابداع. وبهذا تصل الى المعنى في أبهى صورة، وأجمل أسلوب من التناسق والجمال..

واللغة العربية تهتم بالمعنى منذ خلقها الله، وقبل أن يترجم اليها فكر الاغريق ومنطق اليونان.. وقد ترجم لها ما ترجم فوسعته..

حقيقة أن اللغة العربية عنيت بجمال الألفاظ. وذلك لا لذات الألفاظ وانما اهتماما من اللغة بما وراء الألفاظ من معاني. وذلك حتى يقع القول من نفس السامع، وقعا يهيىء له الحالة النفسية، والذهنية، التي تحفز الى الحركة والعمل، وتبعث بالسامع الى المقصود في ثوب مفوف، ووسام لامع..

واننا نجد أن صاحب كتاب «تحرير التحبير» ابن أبي الأصبع المصري، يذكر في كتابه فصولا موسعة، عن ائتلاف اللفظ في اللغة العربية مع المعنى، ليبرهن على أصالة العربية وقوة عطائها. فيقول: «باب ائتلاف اللفظ مع المعنى» وتلخيص معنى هذه التسمية: أن تكون ألفاظ المعنى المطلوب ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى(٩)..

ومثال ذلك في قوله تعالى «**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب**»(١٠) فعدل سبحانه عن الطين الذي أخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه.. منها قوله تعالى: «**اني خالق بشرا من طين**»(١١).. **وقوله سبحانه حكاية عن ابليس**: «**خلقتني من نار وخلقته من طين**»(١٢).. فعدل عز وجل – وهو أعلم – عن ذكر الطين هو مجموع التراب والماء. الى ذكر مجرد التراب. لأنه أدنى العنصرين وأكثفهما. لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الألوهية بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك. فلهذا كان الاتيان بلفظة التراب أمتن من غيرها من العناصر. ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود(١٣)..

ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزلا اذا كان المعنى فخما، ورقيقا اذا كان المعنى رشيقا، وغريبا اذا كان المعنى غريبا بحتا، ومستعملا اذا كان المعنى مولدا محدثا. يقول زهير:

أثافي سفعا في معرس مرجل　　ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم
فلما عرفت الدار قلت لربعها　　الا أنعم صباحا أيها الربع واسلم(١٤)

فان زهير لما قصد الى تركيب البيت الأول من ألفاظ تدل على معنى عربي، لكن المعنى غير غريب، ركبه من ألفاظ متوسطة بين الغرابة والاستعمال. ولما قصد في البيت الثاني الى معنى أبين من الأول وأعرف وان كان غريبا. ركبه من ألفاظ مستعملة معروفة(١٥)..

ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ مساويا للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه. وهذا من البلاغة التي وصف بها بعض الوصاف بعض البلغاء. فقال: «**كانت ألفاظه قوالب لمعانيه**». قال تعالى: «**ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**»(١٦)..

فان قيل: معظم هذه الآية من باب الاشارة، لأن العدل والاحسان والفحشاء والمنكر. على قلة هذه الألفاظ، تدل على معاني من أفعال البر وضدها لا تنحصر، ولا معنى للاشارة إلا دلالة اللفظ القليل على المعاني الكثيرة. فكيف تجتمع المساواة والاشارة؟..

يقال إن المساواة تطلق ويراد بها معنيان: أحدهما: أن تكون ألفاظها ألفاظ المعنى الموضوعة له، فتلك هي التي لا تزيد على المعنى، ولا تقتصر عنه، وهي التي لا تجتمع مع الاشارة، ولا الارداف(١٧)، ولا غيرها من الكلام الذي لفظه أقل من معناه.. والثاني: أن يكون الكلام غير لفظ معناه اموضوع له، كالاشارة والارداف، وما جرى هذا المجرى. فان كانت كذلك ولم يأت المتكلم في أثناء الكلام وخلاله بلفظة زائدة على لفظ المقصد الذي قصده لاقامة وزن، أو لاستدعاء قافية، أو تتميم معنى، أو لايغالٍ أو سجعة. فتلك أيضا مساواة، لأن لكل باب لفظا يخصه، فمتى زاد على ذلك اللفظ الدال على ذلك المعنى المقصود كان الكلام غير موصوف بالمساواة.. والباحث يعرف أن البلاغة قسمان: ايجاز، واطناب، والمساواة معتبرة في القسمين معا. فأما الايجاز فكقوله تعالى: «**ولكم في القصاص حياة**»(١٨).. والاطناب في هذا المعنى كقوله: «**ومن قتل مظلوما جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل**»(١٩). وكقوله سبحانه في قسم الايجاز من غير هذا المعنى: «**خذ العفو وَأْمُر بالعرف واعرض عن الجاهلين**»(٢٠).. وكقوله تعالى في الاطناب «**ان الله يأمر بالعدل والاحسان**»(٢١).. ومن شواهد المساواة قول امرىء القيس:

فان تكتموا الداء لا نخفه وان تبعثوا الحرب لا نقعد
وان تقتلونا نقتلكم وان تقصدوا لدم نقصد(٢٢)

ومن باب ائتلاف اللفظ مع المعنى: ملاءمة الألفاظ في نظم الكلام على مقتضى المعنى لا من مجرد جملة اللفظ. مثل قوله تعالى: «**ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار**»(٢٣).. ويتفرع أيضا من باب ائتلاف اللفظ مع المعنى باب الاشارة وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على المعنى الكثير بايماءة أو لمحة، تدل عليه.. كما قال بعضهم في صفة البلاغة: هي لمحة دالة(٢٤)..

ولقد ثبت لدى علماء مقارنة اللغات أن اللغة العربية بفقهها، ونحوها، وبلاغتها، من أكثر اللغات دلالة معنوية. فالفعل قضى معناه حكم. والأصل فيه القطع الحسي. والفعل عقل معناه فهم، وهو مأخوذ من عقل الناقة أي ربطها. والفعل أدرك. الأصل فيه البلوغ الحسي. فيقال: فلان أدرك القطار أي لحقه. والفعل بلغ، وضع أصلا للدلالة على الوصول الحسي في المكان والزمان. بل إن الأصل في معنى الفصاحة قولهم: فصح اللبن اذا ذهبت رغوته. ثم قيل فصح بمعنى وضح. والرأي أصله من رأى أي شهد بعينه(٢٥).. وفي اللغة العربية أبنية، وصيغ، وقوالب، دالة على معان وصفات، وأحوال. فما كان على (فَعَلان) بفتح الفاء والعين – دل على الحركة والاضطراب. كالنزوان، والغليان، والهيجان.. وما كان على (فَعْلان) بفتح الفاء وسكون العين – دل على صفات تقع من أحوال كالعطشان، والغرثان، والريَّان، والغضبان.. وما كان على (افعل) دل على صفات بالألوان، نحو أبيض، وأحمر، وأسود، وأخضر.. وكذلك العيوب تكون على (أفعل) نحو أزرق، وأعور، وأقطع، وأعرج.. وتكون الأدواء على (فُعَال) – بضم الفاء وفتح العين – كالصداع، والزكام، والخناق..

والأصوات أكثرها على هذا كالصراخ، والنباح، والخوار. وفصل آخر منها على (فعيل) كالضجيج، والهرير، والهدير، والصهيل، والنهيق..

وحكاية الأصوات على (فعللة) كالصرصرة، والقرقرة، والخشخشة.. وأطعمة العرب على (فعيلة) كالسخينة، والعصيدة، والنقيعة. وأكثر الأدوية على (فعول) كاللعوق، والسعوط.. وأكثر العادات على (مفعال) نحو مطعان، ومطعام، ومضياف، ومهذار(٢٦)..

وصيغ الأفعال وأوزانها في اللغة العربية، عامل من عوامل ثروة اللغة، وقدرتها على الدلالة على فروق وظلال. تنضاف الى المعنى الأصلي دون زيادة في اللفظ. ومع الاحتفاظ بطابع التركيز، والدقة، والعمق، والأصالة(٢٧)..

قال الثعالبي: في الأكثر الأغلب (فَعَّل) بفتح الفاء وتشديد العين مع فتحها – يكون بمعنى (أفعل) نحو: كرم وأكرم، ونزل وأنزل. ويكون مضادا له نحو: أفرط إذا جاوز الحد، وفرط اذا قصر.

قال الشاعر :

لا خير في الافراط والتفريط   كلاهما عندي من التخليط

و«أفعل» يكون بمعنى «فعل» نحو أسقى، وسقى، وأمحضه، ومحضه. وقد يتضادان نحو: نشط العقدة إذا شدها، وأنشطها اذا حلها.. وتفعل يكون بمعنى «فعل» نحو تخلصه اذا خلصه..

قال الشاعر :

تخلصني من غفلة الغي منعما   وكنت زمانا في ضمان اساره

وكما قال عمرو بن كلثوم :

تهددنا وتوعدنا رويدا   متى كنا لأمك مقتوينا

ويكون «تفعل» بمعنى «افعل» نحو: تعلم بمعنى اعلم. كما قال النظامي:

تعلم ان بعض الشر خير   وان لهذه الغمم انقشاعا

وتعلم أي إعلم(٢٨)..

فتلك الصيغ والأوزان وغيرها تعطي للمعنى في اللغة العربية تقديرا خاصا، وعناية ملموسة. حتى أن البلاغة في العربية تهدف في أغراضها الى ابراز

المعنى.. والبلاغة في اصطلاح النظار من علماء البيان العربي عبارة عن: **«الوصول الى المعاني البديعة بالألفاظ الحسنة.. وان شئت قلت هي عبارة عن حسن السبك، مع جودة المعاني»**(٢٩)..

ويقول السكاكي في اختيار «اسم المعاني»: «قيل في سبب اختيار هذا الاسم أنه يبحث فيه عن الكيفيات والخصوصيات التي تعتبر في المعاني أولا وبالذات. وفي الألفاظ ثانيا وبالعرض. فنبهوا على أن هذا العلم يتعلق بالمعاني وكيفياتها، لا بالألفاظ نفسها»(٣٠)..

ويقول عبد القادر الجرجاني في مزية المعاني في الكلام العربي: **«وأنها ليست لك من حيث تسمع بأذنك. بل من حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل برؤيتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك»**(٣١)..

يقول ابن جني: فاذا رأيت العرب أصلحوا ألفاظها – أي اللغة العربية – وحسنوها، وحموا حواشيها، وهذبوها، وصقلوا غروبها، وأرهفوها، فلا ترين أن العناية اذ ذاك انما هي بالألفاظ. بل هي عندنا خدمة للمعاني، وتنويه وتشريف. ونظير ذلك اصلاح الوعاء، وتحصينه، وتزكيته، وتقديسه.. وانما المبغى من ذلك منه الاحتياط للموعى عليه وجواره بما يعطر نشره، ولا يعر جوهره. كما قد تجد من المعاني السامية ما يهجنه، ويغض منه كدرة لفظه، وسوء العبارة عنه(٣٢)..

وفي موضع آخر من كتاب «الخصائص» يذكر ابن جني: أنه لما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقا الى اظهار أغراضها ومراميها. أصلحوها، ورتبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد(٣٣)..

وشيء آخر يجعل اللغة العربية أكثر مرونة. وهو أنها أكثر اللغات قبولا للاشتقاق.

والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة أن تؤدي معاني العلم والحضارة. وهو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى، ومادة، وهيئة تركيب، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفا وهيئة(٣٤)..

والاشتقاق في اللغة العربية يقوم بدور لا يستهان به في تنويع المعنى الأصلي، وتلوينه. اذ يكسبه خواص مختلفة بين طبع، وتطبع، ومبالغة، وتعدية، ومطاوعة، ومشاركة، ومبادلة.. مما لا يتيسر التعبير عنه في اللغات الأخرى إلا بألفاظ خاصة ذات معان مستقلة..

وصيغ اللغة العربية تفرق تفرقة واضحة، بين ما هو حركة في النفس، وما هو حركة في الجوارح.. العربية تفرق مثلا بين الكبر والتكبر والتعلم، والفقه والتفقه..

وقد التفت المستشرق الفرنسي «كارادوفو» الى هذه الظاهرة، فلم يسعه الا أن ينوه بها في كتابه عن الغزالي. فقال: «**لقد ميز الغزالي بين الكبر الداخلي، والكبر الخارجي. فالداخلي هو استعداد في النفس، والخارجي ناتج من أفعال الجوارح**».. ولاحظ كارادوفو أيضا: أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها ألفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها في لفظ واحد من اللغات الأخرى.. وخلص المستشرق الفرنسي من هذه الملاحظة الى التنويه بما تنطوي عليه اللغة العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق..

وقال كارادوفو: ان احداث أي تغيير طفيف في بنية اللفظ العربي، يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية، وبين العادة البدنية التي تطابقها(٣٥)..

ولا نزاع في أن منهج اللغة العربية الفريد في الاشتقاق، قد زودها بذخيرة المعاني.. وهذه الطريقة في توليد الألفاظ، بعضها من بعض، جعلت من اللغة جسما حيا، تتوالد أجزاؤه ويتصل بعضها ببعض بأواصر قوية، وتغني عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنعزلة التي كان لابد منها لو عدم الاشتقاق..

وهذا الارتباط بين ألفاظ العربية – الذي يقوم على ثبات عناصر مادية، – وهي الحروف أو الأصوات، وثبات قدر من المعنى. سواء كان ماديا أو ظاهرا أو مختفيا مستترا – خصيصة عظيمة، من خصائص هذه اللغة. تشعر الناطق بها، بما بين ألفاظها من صلات، تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها مدهش، وان طريقتها توليدية، وليست آلية جامدة(٣٦)..

يقول الدكتور عثمان أمين: «واذا أردنا مثلا على ثروة العربية بهذا الضرب من الاشتقاق والتصريف. فلننظر الى كلام رجل من المشتغلين بالعلوم الطبيعية». فهو يرى في كلمة «صهر» أي أذاب الجسم بالنار. انه يستفاد لتأدية هذا المعنى بكلمات كثيرة، تجرى على صيغ متنوعة، ولكل صيغة منها معنى يدل على حالة دقيقة من حالات الجسم تخالف غيرها من الحالات، فنقول: انصهر، واستصهر، وتصاهر، ومنصهر، ومصهور(٣٧)..

ومما تأكد لدى الباحثين أن اللغة ضرورة اجتماعية، وأنها وجدت للوفاء بحاجة الانسان في شتى المجتمعات.. وهذا يوضح لنا أن جميع المشتقات لم توجد في عصر واحد. لأن التطورات في الحياة، قد تعاقبت في أزمنة متفاوتة، وأجيال متعاقبة. وليس من اليسير أن تدرك أسبقها في الوجود، ولا أن تعين الوقت الذي استعملت فيه مادتها الأصلية. والوقت الذي أريد فيه منها معناها الخاص..

الا أن الواقع يرشدنا الى أن المحسوسات أسبق من المعنويات لأنها أول مايقع عليه حس الانسان في حياته..

وهذا يجعل الباحث في اللغة يرجح أن المشتقات وان تفاوتت في الأزمنة وجودا الا أنه لا مناص من الاعتراف بسبق الأمور الحسية على الأمور المعنوية(٣٨)..

وتدل الحركات في اللغة العربية على المعاني المختلفة من غير أن تكون تلك الحركات أثراً لمقطع، أو بقية من أداة. فيكون ذلك في وسط الكلمة وأولها وآخرها. فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل، واسم المفعول، في مثل مكرِم - بكسر الراء - ومكرَم - بفتح الراء.. وبين فعل المعلوم وفعل المجهول. نحو: كتب بفتح الكاف، وكُتب - بضم الكاف - وبين الفعل والمصدر في مثل: عَلِمَ، وعِلْمٌ، وبين الوصف والمصدر في مثل فرِح وفرَح، وبين المفرد والجمع في مثل أَسَد، وأُسُد - بضم الهمزة والسين. وبين الفعل والفعل في مثل قدِم - بكسر الدال، وقَدُم - بضم الدال.. وبين الاسم والاسم في مثل: سحور بضم السين، وسحور بفتح السين(٣٩)..

يقول (اغناطيوس كراتشكوفسكي): أول مانلحظه من أول نظرة نلقيها على هذه اللغة – العربية – الغنى العظيم في الكلمات والاتقان في الشكل، والليونة في التركيب، وكل هذا يدل بوضوح على تاريخ طويل سابق(٤٠).. كما أن اتقان العروض يثير دهشة لا تقل عن تلك التي يثيرها اتقان اللغة.. فاللغة العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي أنجبت عروضا مستقلا..

هذا العروض قرر التحليل العلمي الأوربي طابعه الكمي المبني على تعاقب المقاطع الطويلة والقصيرة في الوحدة العروضية حسب نظام معين.. ولكن العروض العربي، لا يقوم على أساس مفهومي الطول والمقطع(٤١).. بل على أساس التفاعيل المركبة من الحروف المتحركة والساكنة(٤٢)..

وبهذا كانت اللغة العربية أعرق اللغات العالمية منبتا، وأعزها جانبا، وأقواها جلادة، وأبلغها عبارة، وأغزرها مادة، وأدقها تصويرا لما يقع تحت الحس، وتعبيرا عما يجول في النفس، وذلك لمرونتها على الاشتقاق، وسعة صدر للتعريب. نزل القرآن الكريم بلسانها فجعلها أكثر رسوخا، وأشد بيانا، وأقوى استقرارا. وبفضل القرآن صارت أبعد اللغات مدى، وأوسعها أفقا، وأقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية.

واستطاعت اللغة العربية في ظل عالمية الاسلام أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر، وترتفع حتى تصعد أرق اختلاجات النفس. فليس هناك معنى من المعاني، ولا فكر من الأفكار، ولا عاطفة من العواطف، ولا نظرية من النظريات. تعجز اللغة العربية عن تصويره بالأحرف والكلمات تصويرا صحيحا، حي المقاطع، بارز القسمات. هذه اللغة العريقة فتحت صدرها لتراث الانسانية، ومعارف البشرية. كما اتسعت لمقومات الأمة الاسلامية التي شرقت بالحضارة وغربت. برزت تتمتع بقوة لغة، بالغة أشدها. فما عرف التاريخ لها طفولة، وما بدت الا لتكون لسان الحضارة. فسرت من شبه الجزيرة العربية. تنتقل الى الأمصار القصية مفرداتها ومميزاتها.. ووسعت مبادىء ومثل لم تنكل عن احتمال أعبائها. بل في ظل ازدهار الحضارة الاسلامية مرنت، وامتصت، وتفاعلت، ونمت نماءها الطبيعي المتطور من داخلها، وهضمت خلاياها القوية كل ما قدم من خارج محيطها حتى تعملقت واتسعت آفاقها..

ولعل الدارس يلاحظ أن :

اللغة العربية المعاصرة تعاني أزمة... أزمة العزلة عن المعاصرة فالمأكولات، والمشروبات والملبوسات، والمفروشات، وأدوات الحركة، والسكون، والاستعمال، والطب، والدواء، وما يقع عليه بصر العربي، وما تسمعه أذنه، وما تلمسه يده. مستورد بلفظه الأجنبي. وبات كل ذلك جزء من الحياة.. وتلك هي الخطورة الكامنة والتي أصبحت محدقة باللغة العربية..

ومجامع اللغة العربية بالقاهرة، ودمشق، وبغداد، وعمان، والمكتب الدائم للتعريب بالرباط، لم يتوفر لها من الامكانات ما يواكب الحياة المعاصرة التي تفرز في كل يوم الجديد في كل شيء وربما كانت وظيفة المجامع قاصرة على التحقيق، وبات الأمر يتطلب جهودا تبذل في جدية وصدق، بين الْمُسْتَوْرِد والمصدِّر، ليكون الصادر الى المجتمعات العربية، باسم عربي صوتا وحرفا ومعنى.. وقد أثبت التاريخ والتجربة أن اللغة العربية ترجمت اليها ثقافات الفرس والروم واليونان، فوسعتها جميعا، ولم تضق بها وجاءت بالألفاظ والكلمات التي تعبر عن المعنى المقصود في دقة وشمول، وبهذا كانت اللغة العربية هي النافذة التي يطل منها الناس على العالم كما كانت اللغة ذاتها هي المنظار الذي ترى الأمة بواسطته كافة حقائق العلوم، والوجود، وتفسر على ضوئه مجراها ومرساها.

ان مصدر فاعلية اللغة العربية كان الأس الفكري لاطار عملي تطبيقي يحدد لانسان اللغة العربية، المُؤْمِن بها، والمؤتمن على سيادة كلماتها، أسلوب التعامل مع الأغيار..

ان تحديد الموقف العملي الذي يتوجه لانسان اللغة العربية – في مختلف الأحوال والظروف – أن يلتزمه يقع في الصميم من مهمات الحياة. والموقف العملي لا يكون عمليا مالم يحكم بحركة الانسان، وتواجداته. والا فهو موقف نظري ليس مكانه ساحات المخمصة والممارسة الحياتية.

● الهوامش ●

(١) انظر: مقال الاستاذ محمد زياد كبه – مجلة الفيصل العدد العاشر ص ٣١ الرياض.

(٢) أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) فيلسوف يوناني اعتبر موضوع المنطق ليس له الوجود. لأن المنطق

هو علم قوانين الفكر بصرف النظر عن موضوعات الفكر. وهي الموجودات. ويعتبر المنطق عند أرسطو مقدمة لعلوم الفلسفة وتمهيدا لها..

(٣) الدكتور ابراهيم أنيس «من أسرار العربية» ص ١١٧ ط ٣ طبع الانجلومصرية.
(٤) أحمد عبد الرحيم السايح «العلاقة بين اللغة والمنطق عند الفارابي». دراسة موضوعية بمجلة الباحث العدد الرابع ص ٧١ من السنة الثالثة ١٩٨١م تأسست في باريس وتصدر من بيروت.

(٥) مقالنا «العلاقة بين اللغة والمنطق» في المصدر السابق ص ٧٣.
(٦) أبو حيان التوحيدي «الامتاع والمؤانسة» ص ١٠٤ الى ص ١٤٣ الجزء الأول طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.

(٧) الدكتور ابراهيم أنيس «من أسرار اللغة العربية» ص ١٢٠ الطبعة الثالثة نشر مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة.

(٨) أحمد عبد الرحيم السايح «العلاقة بين اللغة والمنطق عند الفارابي» ص ٧٤ مجلة الباحث. بيروت..

(٩) ابن أبي الأصبع المصري(تحرير التحبير) ص ١٩٤ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ.
(١٠) سورة آل عمران. الآية رقم ٥٩..
(١١) سورة ص. الآية رقم ٧١..
(١٢) سورة ص. الآية رقم ٧٦..
(١٣) ابن أبي الاصبع المصري (تحرير التحبير) ص ١٩٤ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية.
(١٤) زهير بن أبي سلمى «الديوان» ص ٧ ط دار الكتب المصرية. وينظر يحيى بن حمزة اليمني في كتاب الطراز جـ ٣ ص ١٤٥ ط مصر ١٩١٤م. والأثافي: جمع أثفية. وهي ما توضع عليه القدر – والسفع: السود – والمرجل: القدر يطبخ فيها – والدو: الحجارة – جذم الحوض: أصله – ويتثلم: يتكسر..

(١٥) ابن أبي الاصبع المصري «تحرير التحبير» ص ١٩٥..
(١٦) سورة النحل. الآية رقم ٩٠..
(١٧) الأرداف هو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ويعبر عنه بلفظ هو ردفه وتابعه أي قريب من لفظ قرب من الرديف «قدامة بن جعفر في كتاب (نقد الشعر) ص ٥٧»..

(١٨) سورة البقرة. الآية رقم ١٧٩.
(١٩) سورة الاسراء. الآية رقم ٣٣.
(٢٠) سورة الأعراف. الآية رقم ١٩٩.
(٢١) سورة النحل. الآية رقم ٩٠.
(٢٢) ينظر: الشريف المرتضي «أمالي المرتضي» جـ١ ص ٢٢٢ تحقيق أبو الفضل ابراهيم طبع سنة ١٩٥٥ بمصر.

(٢٣) سورة هود. الآية رقم ١٣.
(٢٤) ابن أبي الأصبع المصري (تحرير التحبير) ص ٢٠٠ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة.
(٢٥) جورج زيدان «الفلسفة اللغوية» ص ١١٠ الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٣ القاهرة.
(٢٦) الثعالبي «فقه اللغة» ص ٥٥٣ ط المكتبة التجارية بالقاهرة.
(٢٧) أحمد عبد الرحيم السايح «من خصائص اللغة العربية» دراسة بمجلة «الأقلام» السنة السادسة سنة ١٣٨٩هـ. الجزء الأول ص ٢١ العراق.

(٢٨) الثعالبي «فقه اللغة» ص ٥٤٩ ط المكتبة التجارية بالقاهرة.
(٢٩) اليمني «الطراز» جـ ص ١٢٢.
(٣٠) علي عبد الرازق «الأمالي» ص ٦٤ طبعة سنة ١٩١٢م القاهرة.
(٣١) عبد القاهر الجرجاني «دلائل الاعجاز» ص ٥١ الطبعة الثانية. القاهرة.
(٣٢) ابن جني «الخصائص» جـ ١ ص ٥ ط الهلال ١٩١٣. مصر.
(٣٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٣.
(٣٤) السيوطي. «المزهر» ط دار احياء الكتب العربية.
(٣٥) الدكتور عثمان أمين «فلسفة اللغة العربية» ط المكتبة الثقافية مصر.
(٣٦) محمد المبارك «فقه اللغة» ص ٦١ طبعة سنة ١٩٦٠م دمشق.
(٣٧) الدكتور عثمان أمين. فلسفة اللغة العربية ص ٤٨ ط المكتبة الثقافية.
(٣٨) الدكتور ابراهيم نجا «فقه اللغة العربية» ص ٧ مطبعة السعادة بمصر.
(٣٩) الاستاذ ابراهيم مصطفى «احياء النحو» ص ٤٥ الطبعة الأولى.
(٤٠) اغناطيوس «دراسات في تاريخ الأدب العربي» ص ٦ طبع موسكو سنة ١٩٦٥.
(٤١) وهما مفهومان غير معروفين عند العرب.
(٤٢) اغناطيوس «دراسات في تاريخ الأدب العربي» ص ٨.

أخي المواطن: ان اقتران الدارة باسم الملك عبد العزيز رحمه الله، انما هو وفاء بحقه على أمته.. وتقدير منها لدوره البطولي في تأسيس مملكتنا الشامخة، ورمز لاحياء دارات العرب قديما بما كانت تضفيه على الوافدين اليها من كرم وسخاء.. وهذه تقدم للباحثين وراغبي العلم والمعرفة ما يبتغونه من معين العلم الذي لا ينضب..

«مع تحيات دارة الملك عبد العزيز»